السيدة سكينة بنت الحسين

للأستاذ سعيد الديوه جى

— ٣ —

صالونها

ولئن ظهرت صالونات فتيات الطبقة الأرستقراطية فى الغرب حوالى القرن الثامن عشر ، فقد كانت هذه الصالونات معروفة فى الأندلس قبل ذلك بقرون . فكان صالون « ولادة بنت المستكفى » مجمع العلماء والشعراء وأهل الفن والأدب . وهذه الصالونات كانت منتشرة فى المدينة منذ القرن الأول الهجرى . والذى نراه أن أول ظهورها فى الشرق كان فى المدينة المنورة على عهد الدولة الأموية ، وأول من سن هذا هى السيدة سكينة ، ثم تبعها بعد ذلك سيدات قريش

امتازت ندوة سكينة بفخامتها وجلالتها ، ذلك لأنها ندوة سكينة التى نعرف أدبها الرفيع وعلمها وظرفها ومروءتها وميلها إلى تشجيع كل نابغ ، والأخذ بيد كل سائر ، تهديهم الطريق وتذلل لهم العقبات ، وترشدهم إلى مواضع الضعف فى علمهم وأدبهم وفنهم . وفى بيتها غرف للانتظار وأخرى للضيافة يتزاحم فيها الشعراء والأدباء والفقهاء ورواة الحديث والمغنون . وقلما كان يمر بالمدينة أمير أو شريف أو نابغ أو عالم إلا ويعرج إلى هذه الندوة عش الأدباء وكعبة العلماء والفقهاء

وكم اجتمع الشعراء ببابها والناس حولهم يطلبون الإذن منها لينشدوها أشعارهم أملاً فى صلتها أو طلباً لإبداء رأيها . وكم انتظر الشعراء ببابها أياماً حتى يؤذن لهم . والشىء المعتاد عند أهل المدينة هو أن يترددوا إلى ندوتها ليشاهدوا مباراة الشعراء فيها ، أو الحلقات العلمية التى تعقد . أو مجالس رواة الحديث التى تدور ، وكانت السيدة سكينة تشارك فى هذا كله من وراء حجاب بحيث تراهم ولا يرونها ، يحف بها جواريها اللاتى يروين الأحاديث ويحفظن الأشعار

اجتمع الفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب فى موسم الحج . فقال بعضهم لبعض : لا تجتمعون فى مثل هذه الساعة ، فهلموا نفعل شيئاً نذكر به فى الزمان . فقال جرير : هل لكم أن نسلم على سكينة بنت الحسين فلعلها أن تكون سبباً لما أردتم . قالوا : نعم الرأى . وانطلقوا فاستأذنوا . فخرجت جارية وأعلمت مولاتها بقدومهم . فأذنت لهم فقصدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . وأخرجت إليهم جارية وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ قال : أنا . قالت : أنت القائل :

هما دلتانى من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره

قال : نعم . قالت : ما وفقت ولا أصبت . أما آيست من تعريضك بعودة صدق محمودة ؟ ما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها ؟ أفلا سترت على نفسك وعليها ؟ خذ الألف درهم وانصرف . ثم دخلت وخرجت ، وقالت : أيكم جرير ؟ قال جرير : هأنذا . قالت : أأنت القائل ؟ :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال جرير : أنا قلته . قالت : فما أحسنت ولا أجملت ولا صنعت صنع الحر الكريم حين رددتها ، وقد تجشمت إليك هول الليل . أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت لها « نفسى فداؤك فادخلى بسلام . خذ هذه الألفين والحق بأهلك . ثم انصرفت إلى مولاتها ثم عادت فقالت : أيكم القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشء الصغار

بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتظار

قال نصيب : أنا قلته . قالت : غزلت وأحسنت ولا كرمت ، لأنك صبوت إلى الصغار وتركت الناهضات بأحمالها . خذ هذه السبعمائة درهم فاستعن بها . ثم انصرفت إلى مولاتها ثم عادت فقالت : أيكم القائل :

وأعجبنى يا عز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع

دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمع

وإنك لا تدرى كريماً مطلته أيشتد إن لاقاك أو يتضرع

قال كُثَيِّر : أنا قلته . قالت : غزلت وأحسنت . خذ هذه الثمانمائة درهم فاستعن بها . ثم انصرفت إلى مولاتها ثم خرجت فقالت : أيكم القائل :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد

وأفضل أيامى وأفضل مشهد إذا هيج بى يوماً وهن قعود

قال جميل : أنا قلته . قالت : غزلت وأحسنت وكرمت

وعففت ، أدخل . فلما دخل سلم . فقالت له سكينة : « أنت الذى جعلت قتيلنا شهيداً ، وحديثنا بشاشة ، وأفضل أيامك يوم تذب عنا وتدافع ، ولم تعد ذلك إلى قبيح ، خذ هذه الألف درهم وابسط لنا العذر ، أنت أشعرهم »

على أن هذا التبصر بالشعر وفنونه والمآخذ الدقيقة على الشعراء لم يكن ليتهيأ لغير سكينة ، فقد كان لها فوق ذكائها المتوقد ، من عوامل الوراثة من والديها ما ساعدها على ذلك . فجدها سيد فصحاء العرب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها بدوية نشأت فى البادية وتلقت الفصاحة عن شعرائها وبلغائها وهى شاعرة رقيقة . ناهيك عن محيطها الذى نشأت به وهى المدينة المنورة عش الأدباء والشعراء ، ومنشأ الغزل الإباحى العفيف — كل هذه العوامل أثرت فى السيدة سكينة وجعلتها تفوق بنات قريش فى بصرها الثاقب ورأيها الصائب وأدبها الرفيع

ترى رواة الشعراء يختصمون وكل يفضل صاحبه فإذا جدال وإذا خصام وينشدون حكماً صائباً يقدر أن يوفق فى مثل هذا الموقف الحرج فيقضى لفحل على فحل دون خوف أو حذر أو تعصب . ومن لهم فى مثل هذا الموقف ؟ وأنى لهم ذلك الحكم الواسع الاطلاع على أشعار العرب وأنسابها وأخبارها ليوفق فى حكمه ؟ ومن يعرّض نفسه لتهكم جرير أو لفحش الفرزدق أو لهجو الأحوص . هذا ما لا يجرؤ عليه أحد . ولا يتهيأ لغير « السيدة سكينة » . اجتمع بالمدينة رواة الشعراء جرير ونصيب وكثير وجميل والأحوص فأدلى كل منهم أن صاحبه أشعر وتراضوا بأن يحتكموا إلى سكينة بنت الحسين . فقصدوا ندوتها وعرضوا عليها الأمر فأذنت لهم . فدخلوا . قالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟!

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فوا حزناً من ذا يهيم بها بعدى

كأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تواسلا وتوعدا ليلاً إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح النهار تفرقا

قال : نعم . قالت : ألا قال « حتى إذا وضح النهار تعانقا » .

ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فيا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى علىّ كلامها

قال . نعم . قالت . رحم الله صاحبك . إنه كان صادقاً فى شعره ، وكان جميلاً كاسمه . فحكمت له ، ورضى الجميع بالحكم

صبابها للغناء

وللسيدة سكينة شعور رقيق وحب للجمال — وهل يحب الجمال إلا الجميل — هى جميلة فى صورتها ، جميلة فى صوتها ، جميلة فى نفسها ، وجميلة حتى فى تهكمها ونقدها . ففاض هذا الجمال من روحها الطيبة الطاهرة ، وغمر ندوتها ، وجعلها معرضاً للفن والجمال .

وما الغناء إلا مظهر من مظاهر الجمال الروحى الذى تجيش به الأنفس فتهتز له القلوب فتردده ألحاناً .

كان يعجبها الغناء وتهتز له : وكان المغنون يقصدون صالونها ويعرضون فيه ألحانهم الجديدة وأصواتهم المبتكرة التى لم تكن معلومة عند العرب . وكان « الفريض » مولاها يلازم هذه الندوة ويشرف على مرتاديها من أهل الفن . اعتنت السيدة سكينة بتربيته وأسلمته إلى المغنين وما زال يسمو أمره حتى بلغ فى الغناء ما بلغ .

وهذا « حنين المغنى العراقى المشهور يشد الرحال إلى المدينة المنورة تلبية لدعوة زملائه المغنين فيها . ولما كان على مرحلة منها ازدحم الناس لمشاهدته — فلم ير يوماً كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ — وأمل كل سرى وشريف أن يحل حنين ضيفاً عنده . ولكن كل شرف دون شرف السيدة سكينة ، ومن له من الشرف والمروءة مثل ما لها ؟ فعرج حنين إلى دارها ليسلم عليها ويستأذنها فى الغناء عندها قبل كل أحد . فأذنت له بالدخول . ثم أذنت للناس إذناً عاماً وأقبل أهل المدينة كعادتهم إلى صالتها ليسمعوا أنغام حنين ، غصت الدار وصعدوا فوق السطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا ثم ابتدر حنين يغنى :

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب